أبو القاسم سعد الله ومساهمته في الحفاظ على التراث الثقافي الجزائري

محمد زاهي

جامعة تيارت

فقدت الجزائر في يوم السبت 11 صفر 1435 هـ الموافق ل 14 ديسمبر 2013م، شيخ المؤرخين وأعظم رجالات الفكر الذين عرفتهم الجزائر المعاصرة. إن كل دول العالم تحسدنا على مفكر بقيمة الفقيد أبو القاسم سعد الله رحمه الله، الذي حافظ لنا على ذاكرة الأمة الجزائرية، وساهم في البناء الحضاري للجزائر المعاصرة.

إن الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله عبقري من عباقرة التاريخ المعاصر في وطننا، فالواجب علينا أن نوليه عناية في البحث والدراسة، حتى توالي هذه الجهود التي ترفع رأس الأمة الجزائرية المسلمة وتعطي عنها صورة مشرقة للعالم الأجمع.

1- تحصيله العلمي:

ولد المرحوم أبو القاسم سعد الله بتاريخ 1930/07/01م بضواحي قمار من ولاية وادي سوف(1) واحة من واحات الجزائر وحفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه ثم انتقل سنة 1947 لتونس فواصل تعليمه في جامع الزيتونة حيث تحصل على شهادة الثانوية، ثم واصل دراسته في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة بمصر حيث تحصل على شهادة الليسانس(2)، وهي كلية محافظة تقف بين التعليم الأزهري الديني من جهة والتعليم الجامعي، التي كانت تدرس التاريخ والأدب واللغة

والفقه والأصول والفلسفة والأخلاق، والتي تخرج منها كبار الأساتذة(3)، وقد وجد فيها التشجيع والتحفيز من طرف الأساتذة حيث يقول عنهم ما يلي:"....وما زلت مدينا لأساتذتي الذين وجدت منهم كل التشجيع لأنهم ربما فهموا من مخايلي من سأكون"(4).

وقد سافر في سنة 1962 في بعثة علمية إلى الولايات المتحدة أرسلته فيها الحكومة المؤقتة الجزائرية للدراسة في إطار تأطيرها وتكوينها للكوادر التي ستتولى تسيير الجزائر بعد الاستقلال(5)، حيث تحصل على شهادة الماجستير والدكتوراه في التاريخ والعلوم السياسية من جامعة منيسوتا سنة 1965م.

وقد وجد أبو القاسم سعد الله –رحمه الله – في الولايات المتحدة أثناء دراسته ما كان يبحث عنه، فقد ساعدته هذه البيئة الجديدة المتفتحة على فهم المضمون الصحيح لمعنى علم التاريخ كما كان لها الدور الكبير في صقل شخصيته، وقد أشار إلى هذا الأمر يقوله:" وقد وجدت من خلال دراستي، سيما وقد حللت بأمريكا تلك البلاد المادية والصناعية الكبرى، أن التاريخ هو أفضل ما يشبع نهمي العلمي وتطلعاتي العقلية، ففيه الشك قبل اليقين وفيه التريث والتثبيت قبل إصدار الأحكام، وفيه الموضوعية والاحتكام إلى العلم والضمير"(6) ويذكر أيضا:"انفتحت أمامي أبواب كثيرة للفكر والتفكير والمقارنة بين حياتهم وحياتنا. وقد تعلمت أن الإنسان يمكن أ، يصل إلى ما يريد إذا كانت له إرادة للعمل وعقل متحرر من القيود"(7).

2- التدريس في كبريات الجامعات في العالم:

عين أبو القاسم سعد الله – رحمه الله – أستاذا في جامعة ويسكنسين الأمريكية مباشرة بعد حصوله على درجة الدكتوراه، التي درس فيها مدة سنتين من سنة 1965 إلى سنة 1967م.

وبعد رجوعه إلى الجزائر سنة 1967م أصبح أستاذا بجامعة الجزائر(8)، كما درس في فترة العشرية السوداء بجامعة آل البيت بالأردن، حيث قضى مدة معينة في التدريس هناك. ثم التحق بالجامعة الجزائرية مجددا(9). كما عمل أستاذا زائرا في عدد من الجامعات العربية والأجنبية.

3- نظرته للكتابات التاريخية للجزائريين في العهود السابقة:

يعتبر أبو القاسم سعد الله – رحمه الله- أن الكتابة في الجزائر معجزة وأن الشعب الجزائري يقرأ ولا يكتب ولا يدون حياته وأنه شعب يخاف من التاريخ(10)، وفي ذلك يقول:"فأنا لم أقل أنه لا يقرأ وإنما قلت أنه لا يكتب، أما القراءة فنحن والحمد لله شعب قارئ، شعب مستهلك للأفكار، ولا ينقصنا الذكاء والفطنة، ولكن ينقصنا التعبير بالقلم. وقد قلت في مناسبة أخرى بأننا نخاف من الكلمة المكتوبة، بل نخاف من التاريخ لأنه شواهد حية مكتوبة"(11).

4- المثقف المجدد:

كان رحمه الله يدعو للتجديد وضدا لتقليد منذ شبابه، ويظهر ذلك من خلال تمرده على الأساليب القديمة المستعملة في التدريس بجامع الزيتونة، الأمر الذي جعله يكتب مقالا في هذا الصدد في جريدة البصائر سنة 1954م(12). ويذهب أبو القاسم سعد الله – رحمه الله – بعيدا في تقرير هذه الحقيقة حين يقول:"وأبرز ما يحدني في إنتاجي هو الإتيان بالجديد، إنني أبغض أن أسير على خطى الآخرين، وأحب شيء إلى نفسي هو الكشف عن المجهول وأقرب المؤلفين إلي

هم أولئك الذين رفضوا في مجتمعاتهم من زيف واختاروا التمرد على الخضوع، سواء من القدماء أو من المحدثين"(13).

5- اهتمامه بإحياء التراث العربي الإسلامي الجزائري:

تعرضت الجزائر للاستعمار الذي تمادى في سياسته بفصل الأجيال عن تاريخها واجتثاثها من أصولها ، من خلال التشويه الفكري والمسخ الثقافي الذي تعرضت له فكان لزاما على المثقفين الجزائريين بعد الاستقلال وعلى رأسهم أبو القاسم سعد الله – رحمه الله – الوقوف ضد ثقافة اللامبالاة والتشكيك والازدراء في صفوف الشباب، وزرع ثقافة الاعتزاز بمقومات الهوية والتشبع بمنابع الثقافة الوطنية (الإسلام – العربية – التراث)(14).

– وقد وضح لنا أبو القاسم سعد الله – رحمه الله - مدى أهمية التراث في الاستفادة منه في حاضرنا ومستقبلنا بقولهّ:"التراث بالمفهوم الشامل هو (نحن في الماضي)، هو أسلافنا وأفكارنا وأنسابنا وعقائدنا وإنتاجنا، ومن ثمة فإن الكثير مما تركه الأجداد ما يزال صالحا للأخذ منه، والإقتداء به أو الاعتبار، بما فيه من أخطاء أو انحرافات وهذا هو معنى، الاستفادة من التراث في البناء الحضاري المستمر"(15)

6- اهتمامه بتاريخ الجزائر الثقافي لتحصين الجيل من الاستلاب والاغتراب:

كان شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله – رحمه الله – من أغزر المؤرخين الجزائريين في الكتابة والتأليف، ويعود ذلك إلى البحث والكشف عن الكنوز من الكتب والرسائل في مختلف العلوم النافعة التي خلفها لنا أجدادنا، وما فيها من نوادر المخطوطات التي لم تطبع بعد الموجودة في المكتبات الجزائرية والعالمية(16).

- كان الميدان الذي خلق له هو مجال الكتابة التاريخية وإحياء التراث الإسلامي العربي الجزائري وكان مندفعا بكل رغبة ونشاط باحثا عن المخطوطات(17)

- يذود عن العربية والإسلام ويحيي ذكرى الأمجاد والأجداد.

- وكان فيما خبأ له القدر من النعم ليمتاز بها بين أقرانه الباحثين والمؤرخين المجتهدين، وليكون له القدم الأولى فيها أن ألهمه الله إلى القيام بوضع تأليف، انفرد فيه وحده بين جميع من سبقه من المؤرخين الباحثين. بتحرير موضوع جليل خدم به وطنه بما لم يخدمه به أحد غيره ممن تقدمه، ذلك هو "كتاب تاريخ الجزائر الثقافي"

فكان لصدوره وقع طيب في نفوس الجزائريين لأهمية الكتاب أولا، ولنفاسة موضوعه. أزال فيها الستار عن صفحات مجهولة من تاريخ الجزائر الثقافي وكشف لنا جانبا مهما من جوانب التاريخ الجزائري فلولا أبو القاسم سعد الله – رحمه الله – ما عرف أبناء هذا الشعب تاريخهم الثقافي ولا عرفوا أمجادهم القديمة. وفي هذا الصدد يقول في مقدمة الجزء الأول من كتابه تاريخ الجزائر الثقافي ما يلي:"ومع ذلك فإن لهذا الكتاب رسالة واضحة فنحن الآن لا نملك تاريخا لثقافتنا يحدد معالمها ويكشف عم قيمها ويضبط علاقتنا بها. وقد كانت هذه الثقافة عربية إسلامية اشترك فيها الجزائريون من شرق البلاد إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها. وهي ثقافة مهما قيل أنها متقدمة أو منحطة هي نحن في ماضينا. وهي التي نستمد منها اليوم ذاتنا وحقيقتنا فالجزائري اليوم يجب أن يعتز بهذه الثقافة والانتساب لها"(18).

يعتبر كتاب تاريخ الجزائر الثقافي ثمار جهد طويل وبحث عميق، وكل من يطالعه الآن باهتمام إلا ويستطيع أن يدرك الأهداف الظاهرة والخفية للكاتب إن هذا الكتاب كان ثمرة من ثمرات حبه العميق لتاريخ الجزائر، وتفرغه لعمله في خدمة التاريخ بصدق وإخلاص وإيمان. وقد أشار إلى هذا الأمر بقوله: أما أنا فحسبي أن أقول أنني جمعت لهذا الموضوع ما استطعت من المواد قرابة ربع قرن ثم عكفت على دراستها ومقارنتها وتمحيصها ثم صنعتها، فجاء منها هذا الكتاب"(19).

ويلاحظ عبقرية المؤلف وثقافته وتطلعها وخاصة دقة المعلومات، إلا أنه كان يعتمد دائما على المعطيات الموثوق بها، كما أنه ينتقدها بشدة ويذهب أبو القاسم سعد الله – رحمه الله – بعيدا في تقرير هذه الحقيقة حين يقول:" ولم تكن مهمة البحث في المضاف تهدف إلى جمع المادة وحشرها في الكتاب بدون رأي أو تمحيص أو ترتيب. فالكتاب، كما قلت يدرس الظواهر ويحللها ويعللها، كما يدرس الإنتاج ويصنفه ويقيمه ويناقش المؤلفين أرائهم ومواقفهم ويصحح بعض الأخطاء فمادة الكتاب إذن ليست كتلة جامدة من الحوادث التاريخية أو تجريده إحصائية للإنتاج"(20).

- وقد كان أبو القاسم سعد الله – رحمه الله – متواضعا على جلالة قدره وعمله وإنجازه العظيم، وما يزيد الفكرة وضوحا ما ذكره في مقدمة كتاب تاريخ الجزائر الثقافي بقوله:"ولا شك أن عملا يغطي هذا المدى التاريخي الواسع وفي هذا الحجم لا يمكن أن يسلم من الفراغات والهفوات، ولكني سأظل، مادمت حيا، عاكفا على تنقيحه وتهذيبه من المجهود الشخصي ومن تنبيهات واقتراحات الباحثين"(21)

- وقد تم نش كتاب تاريخ الجزائر الثقافي في المرة الأولى في جزأين سنة 1981م، تناول فيها فترة العهد العثماني من القرن العاشر إلى بداية القرن الثالث عشر هجري الموافق للقرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي أي من سنة 1500 إلى سنة 1830، وبخصوص محتويات الجزئين يذكر "وقد تناولت في الجزء الأول النواحي النظرية للتاريخ الثقافي من تيارت ومؤشرات وظواهر ومناهج كما تناولت فيه المؤسسات ورجال التصوف والعلماء وعلاقتهم بالسلطة والشعب. أما الجزء الثاني فقد خصصته لدراسة الإنتاج الثقافي من علوم شرعية ومنطق وتصوف وأدب وتاريخ وطب ورياضيات ونحوها"(22)

وحسبي أن أدلل على إقبال القراء على اقتنائه أنه طبع طبعتين: الأولى طبعة (1401هـ - 1985م)، وهو عمر قصير بالنسبة لنشر الكتب وتوزيعها ونفاذها. ففي الطبعة الأولى نفذ الكتاب في أقل من سنة، وهذا دليل على تلهف الناس على اقتنائه في الجزائر.

وقد توسع فيه المؤلف فكان هذا الكتاب الذي انتهى منه سنة 1998م في 9 مجلدات الصادرة عن دار الغرب الإسلامي (لبنان). كما قامت دار البصائر الجزائرية بنشره سنة 2008 في 10 مجلدات فأصبح عبارة عن موسوعة لتاريخ الثقافي للجزائر.

وقد تناول في الجزء الثالث حتى التاسع الفترة الممتدة من سنة 1830م إلى سنة 1954م. فالجزء الثالث قسمه إلى ثلاث فصول، وقد تحدث في الفصل الأول عن التعليم في المدارس القرآنية والمساجد، وتناول في الفصل الثاني: التعليم في

الزوايا والمدارس الحرة، أما في الفصل الثالث فقد تناول فيه: التعليم الفرنسي والمزدوج.

أما الجزء الرابع فقد قسمه إلى ثلاث فصول، تناول في الفصل الأول والثاني الطرق الصوفية، أما في الفصل الثالث فتناول: السلك الديني والقضائي.

وتم تقسيم الجزء الخامس إلى أربعة فصول: تحدث في الفصل الأول عن: المعالم الإسلامية والأوقاف، وفي الفصل الثاني والثالث: المنشآت والمراكز الثقافية.

أما الجزء السادس فقد تم تقسيمه إلى ثلاثة فصول، وقد تناول فيها ما يلي: الفصل الأول: الاستشراق والهيئات العلمية والتنصير، وفي الفصل الثاني: الترجمة وظهور النخبة الاندماجية، وفي الفصل الثالث: مذاهب وتيارات.

أما الجزء السابع فقد قسمه إلى أربعة فصول، تحدث في الفصل الأول عن: العلوم الدينية، وفي الفصل الثاني: العلوم الاجتماعية، أما في الفصل الثالث: العلوم التجريبية، وفي الفصل الرابع: التاريخ والتراجم والرحلات.

وقد قسم الجزء الثامن إلى ثلاثة فصول، تناول فيها ما يلي: الفصل الأول: اللغة والنثر الأدبي، وفي الفصل الثاني: الشعر، أما في الفصل الثالث: الفنون.

أما الجزء التاسع فقد تناول كتاب تاريخ الجزائر الثقافي فترة الثورة التحريرية من سنة 1954 إلى سنة 1962م، وقد قسمه إلى إحدى عشر فصلا، تحدث فيها في الفصل الأول عم حالة الجزائر: عشية الثورة، وفي الفصل الثاني: الثقافة في نصوص الثورة، وفي الفصل الثالث: الهوية الثقافية، الأدباء بالفرنسية، أما في الفصل الرابع: الإعلام في الثورة، أما في الفصل الخامس: التعليم والتنظيمات الطلابية، أما في الفصل السادس: المسرح والموسيقى والغناء، وفي الفصل السابع تحدث عن: السينما والرسم والمكتبات والخطاطة والمتحف،

أما في الفصل الثامن: أنواع النثر، وفي الفصل التاسع: الشعر، وفي الفصل العاشر: كتب ومكتبات، أما الفصل الحادي عشر تناول: مواقف وآراء.

أما الجزء العاشر: فهو عبارة عن فهارس للكتاب.

وأخيرا، فإن شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله – رحمه الله – سوف يبقى ويعيش في ذاكرة الشعب والأمة والأجيال المتعاقبة والمتلاحقة بآثاره الخالدة وأعماله القيمة ومؤلفاته المتنوعة وموافقة الثابتة وخدماته المخلصة وجهاده المتواصل الدؤوب من أجل خدمة العروبة والإسلام والتراث.

رحم الله شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله، فقد كان كريما في حياته أبيا في مواقفه، متواضعا على جلالة قدره وعمله وقد مضى وهو نقي الثوب فسلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا.

الهوامش:

(1) محمد ، علال، شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله في ذمة الله، جريدة الخبر، العدد 7284، السنة الرابعة والعشرون، يوم الأحد 12 صفر 1435هـ الموافق ل15 ديسمبر 2013، ص 25.

(2) أبو القاسم، سعد الله، حوارات، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2005، ص 67

(3) نفس المرجع، ص 153

(4) نفس المرجع، ص 199

(5) آسيا شلابي وآخرون، رحيل شيخ المؤرخين وعالم العلماء أبو القاسم سعد الله، جريدة الشروق، العدد 4226، يوم الأحد 12 صفر 1435 هـ، الموافق ل 15 ديسمبر 2013، ص 10

(6) أبو القاسم، سعد الله، المرجع السابق، ص 154

(7) نفس المرجع، ص 200

(8) نفس المرجع، ص 67

(9) محمد علال، المرجع السابق، ص 25

(10) أبو القاسم، سعد الله، المرجع السابق، ص 83

(11) نفس المرجع، ص 46

(12) نفس المرجع، ص 56

(13) نفس المرجع، ص 178

(14) عثمان، تشويه الذاكرة وتشويه الوعي، جريدة النبأ، العدد 126، من الإثنين 16 إلى 22 جمادى الثانية 1414 هـ الموافق ل 1 إلى 7 نوفمبر 1993، ص 13.

(15) أبو القاسم، سعد الله، المرجع السابق، ص 186

(16) أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزائر: الشركة الوطنية النشر والتوزيع، 1981، ج1، ص ص07 – 08

(17) آسيا شلابي، المرجع السابق، ص 11

(18) أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 17

(19) نفس المرجع، ج1، ص 19

(20) نفس المرجع، ج1، ص 17

(21) نفس المرجع، ج1، ص 19

(22) نفس المرجع، ج1، ص 14